

لا اريد لهذي القصيدة ان تنتهي "الديوان الاخير"

درويش، محمود، 2009، رياض الريس للكتب والنشر - 2009/06/15م - 11:13 ص

المؤلف: الشاعر محمود درويش
الناشر: دار الريس
الطبعة: الأولى
سنة النشر: 2009
عدد الصفحات:
التجليد: عادي



صدر حديثاً عن مؤسسة دار الكرمل الثقافية برام الله، العدد التسعون من فصلية "الكرمل" في لفتة احتفائية بعيد ميلاد الشاعر الراحل محمود درويش، وتحقيقاً لأمنية درويش بأن يكتمل قوس "الكرمل" بإصدار العدد رقم تسعين.

يضم العدد الواقع في 252 صفحة بين دفتيه قصيدة غير منشورة تحت عنوان "لا اريد لهذي القصيدة أن تنتهي"، والتي تصدر في ديوان جديد عن دار الريس يحمل العنوان نفسه، ويضم آخر ما كتب درويش قبيل رحيله. وفي العدد يكتب الياس خوري القصة الكاملة للديوان الاخير، الذي تولى اعداده للنشر، مبيناً كيفية تعامله مع القصائد وتصنيفها.

وفي العدد ثلاث دراسات: استراتيجيات التعبير وتمثيلات المعنى لصبحي حديدي، ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش لفصل دراج، وعزلة الشاهد لكازم جهاد.

وتحت عنوان ذاكرة شهادات عن درويش، رحيله وحيواته، وهي: الشاعر في رحلته الاخيرة لأكرم هنية، عن الشاعر وبعض أيامه لمحمود شقير، ليلى أخضر للبانة بدر، وصورة اولى لسيد الكلام لحسن خضر، هذا الى جانب افتتاحية العدد الاول من "الكرمل" شتاء 1981.

وجاء في تقديم مدير تحرير "الكرمل"، حسن خضر، لهذا العدد: "وبهذا العدد رقم 90، يكون قوس الكرمل قد اكتمل، ما بين لحظتي البدء والختام. وقد جرى توقيت صدوره في الثالث عشر من آذار، كتحية لمحمود درويش في يوم ميلاده، لعلها تكون فاتحة لتحويل يوم الميلاد، لا يوم الرحيل، الى مناسبة سنوية لإحياء ذكرى الشاعر، والاحتفاء بميراثه، الذي يجب ألا يتحول الى ما يشبه الأثاث الثقافي الثمين، بل ينبغي التعامل معه كمولد هائل الحجم والنفوذ، ومتعدد الطبقات، لتوليد جمال، وثقافة رفيعة، ومعرفة لا تستسلم لسطوة المؤلف، بل تطمح الى مساواة الغامض، تفتح نوافذ العقل والمخيلة، وتحض على المغامرة الإبداعية لكسر أسوار التابو الثقافي والسياسي، واستكشاف المجهول.

ومع اكتمال قوس الكرمل، لا يفوتنا التذكير، بكثير من العرفان، بمن اسهموا الى جانب محمود درويش، في تحريرها لتصبح مرآة للثقافة العربية الجديدة والمتجددة: الياس خوري، سليم بركات، وزكريا محمد، اضافة الى المئات من الكتاب والروائيين والشعراء في فلسطين والعالم العربي، الذين اغتنت "الكرمل" بإسهاماتهم على امتداد ثلاثة عقود من الزمن.

في افتتاحية العدد الاول كتب محمود درويش: "هذا الانهيار الشامل ليس انهيارنا، وليس انهيار الابداع، ولا هو انهيار فلسطين الصراع والمعنى والمستقبل". واذا ما قورن انهيار الماضي بما نحن فيه وعليه في الوقت الحاضر، تبدو هاوية اليوم اكثر سوادا وسوداوية من عثرات الأمس.

ولكن، في هذا العدد المكرس لمحمودنا، تحية الى الشاعر في يوم ميلاده، محاولة للقول: لا هذا الانهيار الشامل انهيارنا، ولا انهيار الابداع والامل، ولا هو انهيار فلسطين الصراع، والمعنى، والمستقبل".

.. هنا تنشر "الأيام"، بالترتيب مع "الكرمل" النص الكامل لقصيدة درويش "لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي".

يقولُ لها، وهما ينظران الى وردة

تجرحُ الحائط: اقترب الموتُ مني قليلاً

فقلتُ له: كان ليلى طويلاً

فلا تحجب الشمسَ عني!

وأهديتُهُ وردةً مثل تلك...

فأدّى تحيّته العسكرية للغيب،

ثم استدارَ وقال:

إذا ما أردتك يوماً وجدتك

فاذهب!

ذهبتُ...

انا قادمٌ من هناك

سمعتُ هسيسَ القيامةِ، لكنني

لم أكن جاهزاً لطقوس التناسخ بعد،

فقد يُنشد الذئب أغنيتي شامخاً

وانا واقفٌ، قرب نفسي، على اربع

هل يصدقني أحد إن صرختُ هناك:

أنا لا أنا

وأنا لا هُو؟

لم تلدني الذنابُ ولا الخيل...

اني خلقتُ على صورةِ الله

ثم مسختُ الي كائنٍ لغويّ

وسميتُ آلهتي

واحداً

واحداً،

هل يصدّقني احد إن صرختُ هناك:

انا ابن أبي، وابن أُمي... ونفسي

وقالت: أفي مثل هذا النهار الفتى الوسيم

تفكر في تبعات القيامة؟

قال: أذن، حدّثيني عن الزمن

الذهبي القديم

فهل كنت طفلاً كما تدّعي امهاتي

الكثيرات؟ هل كان وجهي دليل

الملائكة الطيبين الى الله،

لا أتذكر... لا أتذكر أني فرحتُ

بغير النجاة من الموت!

من قال: حيث تكون الطفولةُ

تغتسل الأبدية في النهر... زرقاء؟

فلتأخذيني الى النهر/

قالت: سيأتي الي ليلك النهر

حين أضُمَّك

يأتي الي ليلك النهر/

اين أنا الآن؟ لو لم ارَ الشمسَ
شمسين بين يديك، لصدقتُ
أنتك احدى صفات الخيال المروّض
لولا هبوبُ الفراشات من فجر غمّازتيك
لصدقتُ أنّي اناديك باسمك
ليس المكان البعيد هو اللامكان
وانت تقولين:
"لا تسكن اسمك"
"لا تهجر اسمك!"

ها نحن نروي ونروي بسرديّة
لا غنائية سيرة الحالمين، ونسخرُ مما
يحلّ بنا حين نقرأ ابراجنا،
بينما يتطفّل عابر درب ويسأل:
اين انا؟ فنطيل التأمل في شجر الجوز
من حولنا، ونقول له:
ههنا. ههنا. ونعود الى فكرة الأبدية!

ليس المكان هو الفخ...
مقهى صغير على طرف الشارع
الشارع الواسع
الشارع المتسارع مثل القطارات
تنقل سكانها من مكان لآخر...
مقهى صغير على طرف الشارع
الشارع الواسع
الأسطوانة لا تتوقف - قالت له
قال: بعد دقائق نخرج من ركننا
الى الشارع الواسع المتسارع
مثل القطارات،

ثم يجيء غريبان، مثلي ومثلك،
قد يكملان الحديث عن الفن،
عن شهوات بيكاسو ودالي
وأوجاع فان غوغ والآخرين...
وعمّا سيبقى من الحب بعد الاجازة،
قد يسألان: أفي وسع ذاكرة
ان تعيد الى جسد شحنة الكهرباء؟
وهل نستطيع استعادة إحساسنا
بالرطوبة والملح في أوّل البحر
بعد الرجوع من الصيف؟/

ليس المكان هو الفخ
في وسعنا ان نقول:
لنا شارع ههنا
وبريد
وبائع خبز
ومغسلة للثياب
وحانوت تبغ وخمير
وركن صغير
ورائحة تتذكر/

ها نحن نشرب قهوتنا بهدوء أميرين
لا يملكان الطواويس، انت أميرة نفسك
سلطانة البر والبحر، من أخصم القدمين
الى حيرة الريح في خصلة الشعر.
في ضوء يأسك من عودة الأمس
تستنطقين حياةً بديهيةً. وبلا حرس
تحرسين ممالك سريةً. وأنا، في

ضيافة هذا النهار، اميرٌ على حصّتي
من رصيف الخريف. وأنسى من المتكلم
فيما لفرط التشابه بين الغياب وبين
الإياب اذا اجتمعا في نواحي الكمنجات
لا أتذكر قلبي الا اذا شقّة الحب
نصفين، او جفّ من عطش الحب،
او تركتني على ضفة النهر احدى صفاتك!
ضيافاً على لحظة عابرة
اتشبّث بالصحو،
لا امس حولي وحولك
لا ذاكرة،
فلتكن معنوياتنا عالية

عصافيرُ زرقاء، حمراء، صفراء، ترتشف
الماء من غيمة تتباطأ حين تطلُّ على
كتفيك. وهذا النهار شفيفٌ خفيفٌ
بهى شهى، رضى بزواره، انثويّ،
بريء جريء كزيتون عينيك. لا شيء
يبتعد اليوم ما دام هذا النهار
يرحب بي، ههنا يولدُ الحب
والرغبة التوأمان، ونولد... ماذا
أريد من الأمس؟ ماذا أريد من
الغد؟ ما دام لي حاضرٌ يافعٌ أستطيع
زيارة نفسي، ذهاباً إياباً، كأني
كأني. وما دام لي حاضرٌ أستطيع
صناعة امسي كما أشتهي، لا كما
كان. إني كأني. وما دام لي
حاضرٌ أستطيع اشتقاق غدي من
سماء تحنُّ الى الأرض ما بين

حرب وحرب، وإنّي لأني!
تقول: كأنك تكتبُ شعراً
يقول: أتابع إيقاعَ دورتي
الدموية في لغة الشعراء. أنا،
مثلاً، لم أحب فتاةً معينةً
عندما قلتُ اني احب فتاةً، ولكنني
قد تخيلتها: ذاتَ عينين لوزيتين،
وشعرٍ كنهر السواد يسيل على
الكتفين، ورمانتين على طيق مرمرى.
تخيلتها لا لشيء، ولكن لأسمعها
شعرَ يابلو نيرودا، كأني أنا هو،
فالشعر كالوهم/

ليس المكان هو الفخ
لم أنتظرك لتنتظريني، فمثلك من
يأمر الحُم بالانتظار الطويل على
ركبتيها. خذيني الى اللامكان المُعدّ
لأمثالنا الضالعين بتأويل ذاكرة الغيم
بين الربيع وبين الخريف، وأما
الربيع، فما يكتب الشعراء إذا نجحوا
في التقاط المكان السريع بصنارة
الكلمات. وأما الخريف، فما نحن فيه
من الاهتداء برائحة الشجر العاطفي
وبحث الغريبة في كلمات الغريب عن
اسم الحنين... وعن شبه غائم
في ثنائية الشعر والنثر. لا النثر نثر
ولا الشعر شعر إذا ما همست:
احبك! او قالت امرأة في القطار
لشخص غريب، أعني على

نحلة بين نهدي... او قال شخص كسول
لإسكندر الأمبراطور: لا تحجب
الشمس عني. ولكنني اذ أغني،
أغني لكي أغري بالموت بالموت/

ليس المكان هو الفخ
ما دمت تبتسمين ولا تأبهين
بطول الطريق... خذيني كما تشتهين
يداً بيد، او صدئ للصدى، او سدى.
لا أريد لهذي القصيدة ان تنتهي ابداً
لا أريد لها هدفاً واضحاً
لا أريد لها ان تكون خريطة منفي
ولا بلداً

لا أريد لهذي القصيدة ان تنتهي
بالختام السعيد، ولا بالردى
أريد لها ان تكون كما تشتهي ان
تكون:
قصيدة غيري. قصيدة ضدي. قصيدة
نذّي...

أريد لها ان تكون صلاة أخي وعدوي.
كأن المخاطب فيها أنا الغائب المتكلم فيها.
كأن الصدى جسدي. وكأني أنا
أنت، او غيرنا. وكأني أنا آخري!

كي أوسع هذا المدى
كان لا بد لي:
- من سنووة ثانية
- وخروج على القافية

- وانتباه الى سعة الهاوية

لا أريد لهذي القصيدة ان تنتهي
لا أريد لهذا النهار الخريفي ان ينتهي
دون ان نتأكد من صحة الأبدية.
في وسعنا أن نحب،
وفي وسعنا أن نتخيل أنا نحب
لكي نرجى الانتحار، اذا كان لا بد منه،
الى موعد آخر...
لن نموت هنا الآن، في مثل
هذا النهار الزفافي، فامتلي
بيقين الظهيرة، وامتلي وامليني
بنور البصيرة/

ينبني هذا النهار الخريفي
أنا سنمشي على طرق لم يطأها
غريبان قبلي وقبلك الا ليحترقا
في البخور الالهي.
ينبني أنا سوف نسمع طيراً تغني
على قدر حاجتنا للغناء... خفيفاً
خفيّ التباريح، لا رعوياً ولا وطنياً
فلا نتذكر شيئاً فقدناه/

ان الزمان هو الفخ
قالت: الى أين تأخذني؟
قال: لو كنت اصغر من رحلتي
هذه، لأكتفيت بتحوير آخر فصل

من المشهد الهوميري ... وقلتُ:

سريرك سرّي وسرّك،
ماضيك يأتي غداً
على نجمة لا تصيب الندى
بأذى،
أنام وتستيقظين فلا انت مُتفئةٌ
بذراعي، ولا أنا زُنارُ خصرك،
لن تعرفيني
لأن الزمان يُشيخ الصدى
وما زلتُ أمشي... وأمشي
وما زلتُ تنتظرين بريدَ المدى
أنا هو، لا تُغلقي بابَ بيتك
ولا ترجعيني الى البحر، يا امرأتي، زيدا
انا هو، من كان عبداً
لمسقط رأسك... او سيّداً
انا هو بين يديك كما خلقتني
يداك، ولم اتزوج سواك
ولم أشفَ منك، ومن نُدبتي ابداً
وقد راودتني آلهاتُ كل البحار سدى
أنا هو، من تفرطين له الوقت
في كرة الصوف،
ضلّ الطريقَ الى البيت... ثم اهتدى
سريرك، ذاك المخبأ في جذع زيتونة
هو سرّي وسرّك...
قالت له: قد تزوجتني يا غريبُ
غريبٌ سواك
فلا جذع زيتونة ههنا
او سرير،

لأن الزمان هو الفخ/

ينبني ضوء هذا النهار الخريفي
أني رأيتك من قبل، تمشين حافية
القدمين على لغتي، قلت: سيرى
ببطء على العشب، سيرى ببطء
لكي يتنفس منك ويخضر. والوقت
منشغل عنك... سيرى ببطء لأمسك
حلمي بكلتا يدي. رأيتك من قبل
حنطية كأغاني الحصاد وقد دلتها
السنابل، سمراء من سهر الليالي،
بيضاء من فرط ما ضحك الماء حين
اقتربت من النبع. سيرى ببطء،
فأني مشيت ترعرعت الذكريات حقولاً
من الهندباء، رأيتك من قبل في
الزمن الرعوي
على قدر ليل الغريب
تنام الغريبة/

فاحتجبي، واظهري، والعبى، واكسري
قدرى بيديك الحريريتين، ولا تخبريني
الى أين تمضين بي في دهاليز سرّك،
لا تخبريني الى أين تمضين بعدي
الى أين أذهب بعدك. لا بعد
بعدك. ولنعتن الآن بالوردة الليلية
ولتُكمل الأبدية أشغالنا دوننا،
إن أطلنا الوقوف على النهر أو
لم نُطل. سوف نحيا بقية هذا

النهار. سنجيا ونحيا. وفي الليل،
ان هبط الليل، حين تنامين في
كروحي، سأصحو بطيباً على وقّع
حلم قديم، سأصحو واكتب مرثيتي.
هادئاً هادئاً. وأرى كيف عشتُ
طويلاً على الجسر قرب القيامة، وحدي
وحرّاً. فإن أعجبتني مرثيتي دون
وزن وقافية نمت فيها ومتّ
والا تقمصت شخصية الغجريّ
المهاجر:

جيتارتي فرسي
في الطريق الذي لا يؤدي
الى أيّ أندلس
سوف أرضى بحظّ الطيور وحرية
الريح. قلبي الجريح هو الكون.
والكون قلبي الفسيح. تعالي معي
لنزور الحياة، ونذهب حيث أقمنا
خيماً من السرو والخيزران على
ساحل الأبدية. ان الحياة هي اسم
كبير لنصر صغير على موتنا. والحياة
هي اسمك يطفو هلالاً من اللازورد
على العدم الأبيض، استيقظي وانهضي،
لن نموت هنا الآن، فالموت حادثة
وقعت في بداية هذي القصيدة، حيث
التقيت بموت صغير وأهديته وردة،
فأحنى باحترام وقال: اذا ما أردتك
يوماً وجدتك/

فلنتدرب على حُبّ أشياء ليست

لنا، ولنا... لو نظرنا إليها معاً من علٍ
كسقوط الثلوج على جبلٍ
سيغني لك العجري، كما لم يغن:
أقول لها
لن أبدل أوتار جيتارتي
لن أبدلها
لن أحملها فوق طاقتها
لن أحملها
لن أقول لها
غير ما تشتهي ان أقول لها
حملتني لأحملها
لن أبدل أوتارها
لن أبدلها

لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي
لا أريد لهذا النهار الخريفي أن ينتهي